

باب التبرير والتعليل

(امالى دينية - الدرس الثالث عشر)

م (٣٦) الارادة - ما تقدم من البحث في العلم من حيث كونه صفة يأتي في الارادة وفي غيرها من الصفات الذاتية : الارادة صفة يخصص بها الفاعل في فعله بعض الوجود الممكنة المتقابلة على بعض بحسب العلم بوجوه التخصيص والترجيح فوظيفتها بعث القدرة على العمل الذي يجزم العلم بأن فيه المصلحة والحكمة وقد اشبهه على كثير من الناس فهم الارادة فمن الناس من يظن انها بمعنى المحبة والرضى ولذلك قالوا ان ضدها الكراهة والصواب ان ضدها (عدم الارادة) يصدق بأمور منها كون الفعل يصدر بالاجبار والاكرام ومنها كونه يصدر بالعلة والطبع والحق انه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا يشاء الله الا ما سبق في علمه والا لزم الجهل تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ومنهم من لا يفرق بين ارادة الله تعالى وارادة الانسان حيث يتوهم ان معنى ارادة الواجب صفة يصح له بها ان ينفذ ما قصده وان يرجع عنه وهذا محال في جانب الواجب كما قال استاذنا في رسالة التوحيد « فان هذا المعنى من الهموم الكونية والعزائم القابلة للفسخ وهي من توابع النقص في العلم فتتغير على حسب تغير الحكم وتردد الفاعل بين البواعث على الفعل والترك »

م (٣٧) اما الدليل على اثبات الارادة للبارى تعالى فهو لازم لدليل اثبات العلم لان من يجزم بان علم الله تعالى محيط بكل شيء بدليل انه

خالق كل شيء وانه لا يعقل ان يخلق ما لا يعلم ويعرف مع هذا ان كل هذه المخلوقات يجوز في العقل ان تكون على غير ماهي عليه بان يكون الكبير صغيراً والاسود أبيضاً الى غير ذلك من الوجوه الممكنة وما يقابلها يجزم بعد الاحاطة بما ذكر بأن الارادة هي التي رجحت بحسب العلم ما كان على ما لم يكن من الوجوه الممكنة

م (٣٨) القدرة - هي الصفة التي يكون بها الفعل والتأثير والتحويل والتغيير ودليلها ما بيناه اولاً من ان جميع الممكنات صادرة عن الواجب تعالى ثم ما بيناه اخيراً من ان صدورها عنه انما هو بتخصيصه المطابق لعلمه وهل يعقل ان الفاعل بارادة عن علم لا يكون قادراً؟ كلا « ان الله على كل شيء قدير »

م (٣٩) الاختيار والنظام - الاختيار هو ان يُصدر الفاعل الفعل بقدرته وارادته الموافقة لعلمه لا بايجاب موجب ولا قهر قاهر ولا بالعلة العمياء ولا بالطبع الذي لا شعور معه . وهذا المعنى لازم لثبوت الصفات الثلاث (العلم والارادة والقدرة) ثم ان الافعال الاختيارية يكون كمالها ونظامها واتقانها واحكامها بحسب كمال العلم واحاطته بوجوه المصالح ومواقع الحكمة والنظام . وعلم الله تعالى كسائر صفاته في منتهى الكمال فافعاله تعالى في غاية الكمال « الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير . » فاذا امكن ان يكون علمه تعالى وتقدس قاصراً عن الاحاطة بكمال النظام او ان قدرته قاصرة عن انفاذ ما علم انه الكمال (سبحانه) يمكن ان تكون هذه العوامل التي هي اثر علمه وحكمته وارادته

وقدرته ناقصة وغير تامة النظام ولكن ذلك غير ممكن وما يترتب عليه ويلزمه ايضا غير ممكن فثبت قول حجة الاسلام الغزالي « ليس في الامكان ابداع مما كان » ولا تستلزم هذه الكلمة نقص القدرة كما توهم بعض اهل العلم كيف وهي لازمة لكيالها وكمال العلم والارادة والحكمة . فلا يقال ان الله تعالى قادر على فعل الخلل وافساد النظام لان هذا محال والقدرة لا تتعلق بالمحال كما لا يقال انه ليس بقادر على ذلك لان الذي يصح ان ينفي هو الذي من شأنه ان يكون ثابتاً وقد اتفقوا على ان القدرة والارادة لا تتعلقان الا بالممكنات وانه ليس من النقص في القدرة عدم تعلقها باعدام الواجب او ايجاد المستحيل وقد تقدم هذا البحث في درس سابق . وجاء في فاتحة مقصورتنا في هذا المعنى قولنا

تبارك الباريء مبدع الورى	بحكمة تروق ارباب الحجي
براه من حيث رصاه فانبرى	مستحصف المرير مشدود المرى (١)
انشا من الهباء كل صورة	فسمك السماء والارض دحا (٢)
ثم اعطى كل شىء خلقه	بحسب استمداده ثم هدى
وخلق الاشياء ازواجاً وقد	قضى بناموس تنازع البقا

(١) رصاه أحكمه وأتقنه والمرير الجبل واستحصفه احكام فقله (٢) الهباء هو المادة التي برا الله منها الكون الاعظم واليهما الاشارة بقوله تعالى « أولم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقاً ففتقناهما » على التفسير الذي ينطبق على العلم الحاضر . وسمى القرآن هذه المادة دخاناً لانها تشبهه وذلك في قوله « ثم استوى الى السماء . وهي دخان فقال لها والارض ائتيا طوعاً او كرهاً » الآية . ويسمي علماء الطبيعة هذه المادة بالسديم . وسمكها دعمها ودحى الارض سواها ومهدها للسكنى

فابعث رسول الطرف منك رائداً
 واسر به لللاق في صراصد
 وارسل الفكر رسولا ثانياً
 حتى اذا جاسا خلال الدار من
 سائلهما هل ثم من تفاوت
 أنى وتلك مظهر الحق بها
 من جري هذا قبل لا امكان في
 فارجع اليها الطرف كرتين وا-
 ترى هناك سنناً حكيمة
 محبوب اجواز البحار والقلا (١)
 معراجها يدنى اليك مانأى
 لعالم الارواح يسمى والنهى
 عوالم الحس وعالم الحجي
 او خلل في البدء كان او عمرى
 قد ظهرت اسماء جبل وعلا
 ابداع مما كان قبل وجرى (٢)
 تجل دناج الامر من ثني القضا (٣)
 لا يعترين العفاء والوهى



﴿ الباب الثاني (الولد) من كتاب اميل القرن التاسع عشر ﴾

(١٤) من هيلانه الى اراسم في ٣٠ أكتوبر سنة ١٨٥٠

لا يزال «اميل» عاجزاً عن التكلم غير ان كلاً منا يفهم مراد صاحبه
 لان الاطفال قبل ان يصير في مقدورهم اخراج الحروف من مخارجها
 بزمان طويل يعسرون عما يروهم من الفرح والدهشة والخوف والام
 بضروب من الصياح والصراخ الفطري ينذر ان تخطى الام في فهم معانيها

(١) الاجواز الاوساط (٢) من جري هذا اى من اجله ويقال من جرائه
 ايضاً (٣) دناج الامر (ككتاب) احكامه واتقانه والتي معروف وتقوله العمامة
 بالثناء المثناة واذا ثبت الثوب فجعلته اطواقاً فكل طاق يسمى ثياً وهو المراد هنا
 وجمعها اثناء ويضاف الى المعاني تجوزاً فيقال اثناء الكلام والمراد بالقضاء ما صدق
 عليه وهو المنقضى والمعنى اطلب جلاء احكام الكون واتقانه من مظاهر قضاء الله
 وهي خليقته كلها .

وهي ان لم تكن لساناً معروفاً فأقل ما فيها انها لهجة تفصح عما في نفوسهم من الوجدانات والافكار . واني لفي شك من ان الكلام يكون في اعرابه لي عن انفعالات ولدي اكثر من هذه الاصوات بياناً علي اني لا اخال ان صورة اخرى من صور التعبير عما في النفس توافق حالته موافقة هذه لها لم يقتصر « اميل » علي هذه اللهجة بل انه اخترع من بضع اسابيع طريقة للمحادثة معي فاذا اراد ان يكلمني عن كلب البيت قلد بناحه بقدر ما في اعضائه الضعيفة من الاستطاعة واذا حملته جورجيا وخرجت به للتنزه علي ساحل البحر فانه عند عوده يخبرني بهبوب الرياح وذلك بان ينفخ فيحدث صوتاً مخصوصاً واذا صادف في طريقه قطيعاً من البقر او الغنم قص علي ما رآه باصوات افهم ما يريد بها واني علي ما اجده في قصصه هذه من اللذة قد انشأت افلق لحالته هذه وأحدث نفسي بانى افرطت في اغفاله واسلامه الي الفطرة وانه ربما كانت عاقبة ذلك حدوث بعض عاهات في قواه النفسية اكون انا السبب في حدوثها ولقد استفتيت في هذا الامر السيدة وارنجتون وكاشفتها بما اجده من الخوف لانها لما كانت زوجة طيب كان لها هي ايضاً بعض الدراية في الطب فاجتهدت كثيراً في نحو هذا الفكر من نفسي وفي تسكين روعي وقالت لي ان هذا الامر عام في جميع الاطفال الذين يربون في الارياف .

وعلي كل حال فما ادرا ان هذه الاصوات ليست هي اصل اللغات الانسانية ؟ اقول هذا وانا عارفة انه ربما اضحكك ولكن ما المانع في ان الانسان وهو في زمن طفوليته اذ كان يسكن الاجام والكهوف كان يتلمس مبادئ الكلام في الفاظ الغابات واصوات الحيوانات وغيرها من المخلوقات اه